بعض مكوّنات عالمي الروائي

جمال الغيطاني

« .. من خلال قراءتي لبعض الانتاج الروائي العربي لاحظت انه يدور في فلك الشكل الروائي الذي وجدت به الرواية في العالم الغربي، بل ان بعض الكتاب تأثروا باتجاهات معينة في الادب الغربي، وحاولوا نقلها الى تجربتهم الروائية، ومنذ فترة بعيدة شعرت بضرورة خلق اشكال فنية للرواية تستمد عناصرها من التراث العربي، وربما كان السبب الكامن وراء ذلك اهتمامي المبكر منذ فترة بعيدة بالتاريخ، ونشأتي في منطقة القاهرة القديمة المزدحمة بالمساجد والاسبلة والبيوت القديمة، والاهم من ذلك علاقات الناس التي لا تزال في جوهرها تمت الى زمن آفل، ثم سبب آخر وهو إحساسي القوي بالزمن، هذه القوة التي لاراد لها، الزمن في صيرورته المخيفة، واستمراريته، وسيولته التي لا تتجمد أبداً، كان إحساسي بالزمن هو اساس مفهومي للتاريخ، التاريخ بالنسبة لي هو الزمن، ليس مفهومي للتاريخ انه عصر معين محدد بعلامات رمزية وضعها الانسان، اقصد السنوات والشهور والدقائق والثواني، هذه اللحظة التي اتحدث فيها الآن ولت الى غير رجعة. هل هناك فرق بين هذه اللحظة، وبين اللحظة التي هزم فيها السلطان الغوري في مرج دابق امام جيوش العثمانيين، او اللحظة التي وقف فيها القائد العباسي الموفق على اطلال عاصمة دولة الزنج في البصرة، او اللحظة التي اختفى فيها الحاكم بأمر الله، اذا كان هناك فرق فلتعيدوا اللحظة التي ولت اذا كانت قريبة طبقاً للتقسيم الميكانيكي للزمن الذي وضعه الانسان، بل اقول اكثر من ذلك ان الغد هو تاريخ مستقبلي متخيل، كل شيء يمضي مع الزمن ويولي، وكل شيء معرض ايضاً للتشويه والتبديل والتغيير في هذا المسار طبقاً لمصالح الانسان ومواقفه، لقد لاحظت من خلال قراءتي للتاريخ ومعايشتي له انه لا حقيقة في التاريخ، وان اكبر الحقائق التي لا يمكن للعقل في لحظتها تصور تحريفها او تغييرها يمكن ان تبدل او تغير، وفي مصر عشنا تجربة مشابهة، هل كان يتصور احد في جيلنا مثلاً ان السد العالي سيصبح يوماً مثار نقاش، جدواه او عدمه، لقد حدث ذلك في فترة زمنية قصيرة بالحساب الميكانيكي للزمن عشناها في حياتنا المحدودة ورأيناها، لقد شوهت سيرة علي بن محمد قائد ثورة الزنج، والحاكم، وعبد الناصر، وغيرهم. ولكن الفنان الحقيقي هو الذي يصون مسافة زمنية معينة من العدم، ان الفنان يسجل ما لا تذكره سطور المؤرخين، او صفحات الجرائد، او سجلات الحوليات، انه ينفذ الى جوهر الواقع، الى اللامرئي، واللامحسوس، وأضرب مثلاً مرة اخرى بثورة الزنج، فالشعر القليل المتبقي من اشعار قائدها يرشدنا الى كثير من جوهرها الذي اغفله المؤرخون، بل من خلال بعض ابياته يمكن تحديد اللحظات التي قيل فيها، كهذين البيتين اللذين اجزم انهما قيلا والثورة تدنو من نهايتها..

وفي كـل ارض او بكـل محلـة
اخو غربـة منـا يكابـد مطمعـا
كأنـــا خلقنـــا للنوى
وكانمـا حرام علينـا ان نتجمعـا،

هنا اعتبر ان الفنان مؤرخ من نوع فريد، لأنه يصون جوهر مسافة زمنية معينة من العدم، من التلاشي في هذا الفراغ الكوني الرهيب المسمى بالزمن، وجوهر المسافة الزمنية اقصد به جوهر الواقع الذي لا يرصده الا الفنان ويعيد خلقه من خلال رواية. او قصة، او شعر، او لوحة. لولا اللوحات التي نقشت على جدران المعابد الفرعونية. ولولا القصص التي وصلتنا على اوراق البردى لما امكن لنا ان نستعيد هذه المسافة الزمنية المسماة بالعصر الفرعوني.

والتراث هو ما امكن ان يتبقى من خلال مسافات زمنية معينة، والتراث يختلف من شعب الى آخر. ومن بلد الى آخر. وهنا اعود الى النقطة التي بدأت بها حديثي، وهي استلهام التراث العربي في خلق اشكال فنية جديدة، متفردة، تعبر عن واقعنا بقوة، وتمدنا بأدوات فنية لصياغة هذا الزمن المولي، ولحفظ جوهره من الفناء، مع ملاحظة ان هذا التراث الذي اشير اليه هو في بعض جوانبه محاولة من آخرين عاشوا خلال مسافات زمنية معينة لحفظ اللحظات التي عاشوها من الفقد، من الضياع.

هناك منابع عديدة في تراثنا العربي، وانا اقصد التراث العربي بمفهومه الواسع، واشير الى عدة محاور رئيسية.

● هناك كتب المؤرخين، سواء الرسميون منهم، او اولئك

الذين سجلوا ملامح من حياة الناس العاديين، هؤلاء الذين يسقطون دائماً من كتب التاريخ، ومن بين سطوره، واخص منهم بالذكر في مصر ابن اياس الذي شهد فترة الغزو العثماني لمصر، والمقريزي.

● هناك كتب الخطط، وهو شكل عربي خالص لا مثيل له في الادب العالمي، وهو ادب المكان بكل ما احتواه، وما دار فوقه، واشير الى خطط المقريزي، وخطط علي باشا مبارك، وخطط الشام لمحمد كرد علي.

● هناك كتب السحر والتنجيم، مثل شمس المعارف الكبرى، وتذكرة العارفين وغيرها.

● هناك علم الأخرويات، الذي يقوم على تصور ما سيحدث في العالم الآخر. وفي الاخرويات نجد انه قائم على عملية خلق كاملة، وهنا اشير الى الاجزاء المتخيلة في اسفار التاريخ العربي، والتي تحاول تسجيل الزمن الذي شهد خلق العالم، والمسافات الزمنية التي كانت مجهولة لاولئك المؤرخين، هذا خلق كامل ايضاً، ويجرنا ذلك الى الاساطير العربية، وخصوصيتها، وحكايات الفولكلور والحكايات الشعبية، وكل عناصر ما يمكن تسميته بالثقافة التحتية، هذه الثقافة التي يشعر بعض المثقفين بالتعالي عليها، ولا يلتفتون اليها، في الوقت الذي ينبهر فيه البعض بكتاب من الدرجة الثانية لمجرد انهم من الغرب. وامامي تجربة لكتاب امريكا اللاتينية الذين استمدوا عناصر ابداعهم من واقع الثقافة التحتية لشعوبهم، واشير بالذات الى «مائة سنة من العزلة» لجارسيا ماركيز.

● هناك كتب العجائب العربية، والتي كانت في معظمها محاولة لتفسير بعض الظواهر الطبيعية التي كان الذهن البشري يعجز عن تفسيرها، واذكر كتاب عمر بن الوردي «خريدة العجائب» وكتاب ابراهيم بن مصيف شاه «مختصر العجائب».

وهنا اشير الى الاساليب اللغوية الثرية والمتنوعة، التي نجدها في تلك المحاور التي اشرت اليها، انني ادعوكم الى تأمل اسلوب القص عند ابي الفرج الاصفهاني في عرضه لشخصيات الاغاني، الاسلوب ذي المستوى الواحد، الخالي من الاوصاف الدقيقة للشخصية، ولكنه يرسم ملامحها واوصافها بدقة، سواء من خلال الحديث المباشر عنها، او من خلال حكاية مروية عن الشخصية.

اشير ايضاً الى اسلوب بعض المؤرخين واذكر بالذات ابن اياس، والمقريزي، والجبرتي، الاسلوب التلقائي، المباشر، الفصيح. ولكنه يبدو قريباً من اللهجة اليومية للناس، والغني باوصاف تلقائية غير منحتة، ولكنها مليئة بالحرارة، وهذا الاسلوب اللغوي توجد به خاصة متفردة، يمكن ان نسميها بالحيادية. أي ان المؤرخ كان يقص افظع الحوادث واكبرها بهدوء وكانه يحكي ابسطها، حتى ليخيل الي في بعض الاحيان انه كان يمسك انفاسه اثناء الكتابة، وعلى وجهه تعبير اسيان، ربما مبعثه شعوره بأنه يحاول جاهداً انقاذ لحظة من العدم.

وهناك الاسلوب الخاص لنصوص المتصوفة، بمصطلحاته الخاصة، وغموضه. والاسلوب الغريب لكتب السحر والتنجيم. انني امد مفهومي للتراث الى العمارة العربية والاسلامية نفسها. انا شخصياً استفدت كثيراً من تأملاتي وفهمي لتركيب العمارة الاسلامية وما تخفيه من مضمون فلسفي ورؤية خفية، خاصة في مساجد القاهرة، بل اضع كتب الحرب القديمة، والخطط العسكرية القديمة في المعارك، واساليب الدعاة لبعض الحركات الفكرية في التاريخ العربي والاسلامي، مثل اساليب الدعاة الفاطميين، ومراحلها السبعة، والنظام الغريب الذي وصفه الحسن بن صباح في قلعة الموت، والتصميم المعماري لكتاب الداعي الفاطمي حميد الدين الكرماني، راحة العقل، اضع ذلك كله في اطار التراث الذي له خصوصية تتصل بواقع هذه المنطقة من العالم التي نعيش فيها.

صدر حديثا

سلسلة الاسلام الحضاري

(١)

الاسلام والمجتمع العصري

حوار ثلاثي حول الدين وقضايا الساعة

تأليف

الدكتور صبحي الصالح

(٢)

كيف نفهم الاسلام

تأليف المستشرق

فريتجوف شيون

ترجمة الدكتور عفيف دمشقية

دار الآداب